

## علم العروض بين الأصالة و المهجنة

الدكتور محمد ابراهيم خليفه الشوشترى<sup>١</sup>

### الملخص

إنّ الواقع التاريخي يشهد أنّ علم العروض كعلم النحو وليد الحضارة الإسلامية، و أنّ مبتكره هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، و أنّه أُلّف في هذا العلم كتاباً و قد ظهر هذا العلم على يديه متكاملًا، مما يدل على عبقريته و نبوغه. لكنّ الأسباب التالية قد دعت بعض الباحثين المحدثين إلى التشكيك في أصالة علم العروض:

- ١- أنّ علم العروض ظهر على يد الخليل بن أحمد كاملاً دون أن يكون ظهوره خاضعاً لسنة التطور.
- ٢- وجود نص لابن فارس يستفاد منه أنّ علم العروض كان موجوداً قبل الخليل بن أحمد.
- ٣- وجود نص للبيروني أستفيد منه أنّ الخليل بن أحمد قد قلد المنود في وضعه لعلم العروض.

إنّ هذه الأسباب ومثلها دفعت بعض المحدثين إلى أن يعتقد قسم منهم أنّ علم العروض العربي مأخوذ من علم العروض السنسكريتي، و أن يعتقد قسم آخر منهم أنه مأخوذ من اليونان، و أن يذهب قسم ثالث إلى أنه كان موجوداً عند العرب قبل الخليل. تثبت اصالة علم العروض: ١- بمناقشة الآراء و النظريات المخالفة، و إثبات بطلانها؛ ٢- إيراد الأدلة التاريخية و العلمية على أصالة علم العروض؛ ٣- بيان الغرض الذي توخاه الخليل بن أحمد من ابتكار هذا العلم؛ ٤- بيان حقيقة معنى كلمة (المتر) الواردة في نص الباقلاني.

**المفردات الرئيسية:** العروض، القافية، البحر، التفعيلة، الوزن، المتر.

### مقدمة

إنّ الواقع التاريخي يشهد أنّ علم العروض كعلم النحو وليد الحضارة الإسلامية، و أنّ الخليل بن أحمد هو مبتكر هذا العلم، و لم يشاركه في وضعه أحد، و لم ينسب لغيره، و سنرى إجماع روايات العلماء على ذلك. و الذي يشهد للخليل بالعبقرية أنه جاء بالعروض علماً متكاملًا غير خاضع لسنة التطور.

[m\\_khalifeh@sbu.ac.ir](mailto:m_khalifeh@sbu.ac.ir)

١. استاذ مساعدفى قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة الشهيد بهشتى

تاريخ القبول: ٢٧/٥/٨٨

تاريخ الوصول: ١١/٢٣/٨٧

فألف فيه كتاباً، كما ألف في النغم و الإيقاع كتاباً آخر. و إن معرفته العميقة بالإيقاع و النغم أحدثت له علم العروض. لكننا - مع الأسف الشديد - نرى من يخالف هذه الحقيقة المجمع عليها متمسكاً بما لا يقوم دليلاً علمياً على ما يريد إثباته.

أما الجديد في هذه المقالة فيتلخص في النقاط التالية: الأولى: الحيوية و روح النقاش العلمي المصحوب بدقة النظر؛ والثانية: الإشارة الى أن بعض المستشرقين كبروكلمان قد أكد على أصالة علم العروض، و أنه من ابتكارات الخليل بن أحمد؛ و الثالثة: التحقيق في المصطلح العروضي الذي نقله من كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني من ظن أنه مصطلح عروضي يوناني، فاستدل به على أن علم العروض مأخوذ من العروض اليوناني، لكن التحقيق أفاد أن هذا المصطلح عربي، و ليس يونانياً، و أن من استدل به قد أخطأ في نقله من كتاب (إعجاز القرآن)، فهو (متر)، و ليس (ميتراً)، و بذلك يبطل استدلالهم به؛ و الرابعة: أن هذه المقالة تطرح موضوعها طرحاً منهجياً موجزاً مدعوماً بالدليل ليكون سهل التناول للدارسين؛ والخامسة: التصدي لمناقشة النظريات الثلاث القديمة الموجودة في هذا المجال، و التي تجتمع على عدم أصالة علم العروض.

لكنها لا تتفق على الجهة التي أخذ الخليل منها بزعمهم علم العروض: فانفردت إحداها بأنه أخذه من العرب القدامى، و انفردت الأخرى بأنه أخذه من اليونان، و ذهب الثالثة إلى أنه أخذه من عروض اللغة السنسكريتية. أما العروضيون المعاصرون الذين لا يرون أصالة علم العروض العربي، فقد انقسموا تبعاً لتلك النظريات الى ثلاثة أقسام.

### آراء و مناقشات حول أصالة علم العروض:

الحق أننا وجدنا آراء مختلفة حول أصالة علم العروض، فأكثرها يؤكد أصالته و بعضها يذكر أن الخليل لم يكن أول مبتكر لعلم العروض، و بعضها الآخر يشير إلى عدم أصالته، و أنه متأثر بعروض الأمم الأخرى و بعد استقصاء جميع تلك الآراء استطعنا أن نقسمها إلى مجموعتين تسهياً على الدارس، و نحن نذكر - فيما يلي - جميع تلك الآراء المستقصاة مشفوعاً كل منها بالمناقشة اللازمة، و ذلك ضمن المجموعتين التاليتين:

**المجموعة الأولى:** و تتمثل في رأي واحد مجمع عليه من قبل العلماء المسلمين عربياً و غير عرب: و هذا الرأي هو أن الخليل هو المبتكر الأول لعلم العروض، و قد جاء به متكاملًا، و لم يسبقه أحد إليه. وإليك باقة من أقوال العلماء التي تثبت ذلك على مدى سبعة قرون ابتداء من القرن الثالث و انتهاء بالقرن العاشر:

- ١- قال ابن سلام الجمحي المتوفى سنة (٢٣١ هـ): "ثم كان الخليل بن أحمد ... فاستخرج من العروض، و استنبط منه و من علله ما لم يستخرج أحد، و لم يسبقه إلى مثله سابق من العلماء كلهم". (الجمحي، ١٩٧٠ م: ج ١ / ٢٢).
- ٢- و قال الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥ هـ): "نظر الخليل البصري في الشعر و وزنه و مخارج ألفاظه، و ميّز ما قالت العرب منه، و جمعه، و ألفه، و وضع في الكتاب الذي سماه العروض، و ذلك أنه عرض جميع ما روي من الشعر، و ما كان به عالماً، على الأصول التي سماها، و العلل التي بينها، فلم يجد أحداً من العرب خرج منها، و لا قصر دونها. فلما أحكم و بلغ ما بلغ، أخذ في تفسير النغم و اللحن، فاستدرك منه شيئاً، و رسم له رسماً احتذى عليه من خلفه، و استتمه من عني به". (الجاحظ، ١٩٨٧: ٢١٨).
- ٣- و قال ابن المعتز المتوفى سنة (٢٦٩ هـ): "كان الخليل بن أحمد أعلم الناس بالنحو و الغريب .... و أول من اخترع العروض و فتنه، و جعله ميزاناً للشعر". (ابن المعتز، ٢٠٠٢ م: ٩٥).
- ٤- و قال أبو الطيب اللغوي المتوفى سنة (٣٥١ هـ): "و مما أبدع فيه الخليل اختراعه العروض التي حظرت على أوزان العرب، و ألحقت المفحمين بالمطبوعين. و بلغنا عن الخليل أنه تعلق بأستار الكعبة، و قال: اللهم ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأولون و لا يأخذه إلا عني الآخرون، ثم رجع، و عمل العروض". (اللغوي، ١٩٧٤ م: ٥٨).
- ٥- و قال أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة (٣٦٨ هـ): "و أما الخليل بن أحمد .... فقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو، و تصحيح القياس فيه، و هو أول من استخرج العروض، و حصّر أشعار العرب بها". (السيرافي، ١٩٣٦ م: ٣٨).
- ٦- و قال الأزهرى المتوفى سنة (٣٧٠ هـ): "كان الخليل بن أحمد، و هو رجل من الأزد.... فاستخرج من العروض، و استنبط منه و من علله ما لم يستخرجه أحد، و لم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم". (الأزهرى، ٢٠٠١ م: ج ١ / ١٠).
- ٧- و قال أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة (٣٧٩ هـ): "و كان الخليل ذكياً فظناً شاعراً و استنبط من العروض و من علل النحو ما لم يستنبط أحد، و ما لم يسبقه إلى مثله سابق". (الزبيدي، ١٩٧٣ م: ٤٣).
- ٨- و قال ابن النديم المتوفى حوالي سنة (٣٨٥ هـ): "و هو أول من استخرج العروض و حصن به أشعار العرب". (ابن النديم، ١٩٧٨ م: ٦٤).
- ٩- و قال ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة (٤٦٣ هـ): "فأول من ألف الأوزان، و جميع الأعراب و الضروب الخليل بن أحمد، فوضع فيها كتاباً سماه العروض". (ابن رشيق، ١٩٣٤ م: ج ١ / ١١٤).

- ١٠- و قال الشنتريني المتوفى سنة (٥٤٩ هـ): " و جملة أعاريض الشعر و ضروبها عند الخليل أربع و ثلاثون عروضاً و ثلاثة و ستون ضرباً ". (الشنتريني، ١٩٦٨ م: ١٥).
- ١١- و قال أبو البركات الأنباري المتوفى سنة (٥٧٧ هـ): " و هو أول من استخراج علم العروض و ضبط اللغة .... و كان أول من حصر أشعار العرب ". (الأنباري، ١٩٦٧ م: ٤٦).
- ١٢- و قال أبو يعقوب السكاكي المتوفى سنة (٦٢٦ هـ): " الإمام الخليل بن أحمد ذلك البحر الزاخر، مخترع هذا النوع، و على الأئمة المغتربين منه من العلماء المتقدمين به ". (السكاكي، ١٩٨٧ م: ٥١٨).
- ١٣- و قال الحموي المتوفى سنة (٦٢٦ هـ): " و هو أول من استخراج العروض، و ضبط اللغة، و حصر أشعار العرب. يقال إنه دعا بمكة أن يرزقه الله - تعالى - علماً لم يسبق به، فرجع، و فتح عليه بالعروض و كانت معرفته بالإيقاع هو الذي أحدث له علم العروض ". (الحموي، ١٩٩١ م: ج ١١ / ٧٣-٧٤).
- ١٤- و قال القفطي المتوفى سنة (٦٤٦ هـ): " استنبط من العروض و علله ما لم يستخرجه أحد، و لم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم ". (القفطي، ١٩٥٠ م: ج ١ / ٣٤٢).
- ١٥- و قال حمزة بن الحسن الاصبهاني، و هو من علماء القرن الرابع الهجري: " إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول، من الخليل. وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه، و إنما اخترعه من ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست ليس فيهما حجة، و لا بيان يؤديان إلى غير حليتهما، أو يفيدان غير جوهرهما، فلو كانت أيامه قديمة و رسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعة ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، و من تأسيسه بناء كتاب «العين» الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سبويه من علم النحو. بما صنف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام ". (ابن خلكان، ١٩٦٩ م: ج ٢ / ٢٤٥).
- ١٦- و قال ابن خلكان المتوفى سنة (٦٨١ هـ): " الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي .... كان إماماً في علم النحو، و هو الذي استنبط علم العروض، و أخرجه إلى الوجود، و حصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بجزاً، ثم زاد فيه الأخصش بجزاً آخر، و سماه الخبب. وقيل: إن الخليل دعا بمكة أن يرزق علماً لم يسبقه أحد إليه، و لا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حجته، ففتح عليه بعلم العروض، و له معرفة بالايقاع و النغم، و تلك المعرفة أحدثت له علم العروض، فأتى متقاربان في المأخذ ". (المصدر نفسه، ج ٢ / ٢٤٤).

١٧- و قال الفيروز آبادي المتوفى سنة (٨١٧ هـ): " العروض: مكة و المدينة - حرسهما الله تعالى - .... و ميزان الشعر، لأنه به يظهر المترن من المنكسر .... أو لأنّ الشعر يعرض عليها، أو لأنه أهمها الخليل بمكة ". (الفيروز آبادي، ١٩٨٧ م: ج ١ / ٨٧٣).

١٨- وقال جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١ هـ): " الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري أبو عبد الرحمن صاحب العربية و العروض .... و هو أول من استخراج العروض، و حصر أشعار العرب بها ". (السيوطي، ١٩٧٩ م: ج ١ / ٥٥٧).

الحق أنّ هذه النصوص الصريحة إنما تدل على اجماع علماء العصور المختلفة على أصالة علم العروض، و أنّ مبتكره الأول هو الخليل بن أحمد الفراهيدي بلا منازع و أنه لم يستفد من أعمال من سبقه من علماء الأمم الأخرى. و هذا ما صرح به الخليل نفسه حين قال: " اللهم ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأولون، و لا يأخذه إلاّ عتّي الآخرون ". (اللغوي، ١٩٧٤ م: ٥٨).

و في ختام هذه المجموعة أود أن أنتخب أحد المستشرقين و أحد الدارسين المعاصرين لنرى رأيهما في أصالة علم العروض. و قد وقع الاختيار على كارل بروكلمان المستشرق الألماني صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي، و أحمد أمين المؤرخ الإسلامي المعروف .

قال أحمد أمين المصري: "إنما الذي كان له الفضل الأكبر في ذلك الخليل بن أحمد ذو العقل الجبار المبتكر الذي قلّ أن يوجد له نظير في علماء ذلك العصر، و الذي عكف على العلم يخترع فيه، و يستنبط أصوله من فروعه على طريقة لم يسبق إليها، و اكتفى في دنياه بالقليل من العيش، و وجد في لذته الفكرية عوضاً عن كل لذة، فهو أول مبتكر للمعاجم العربية، كما رأيت، و هو أول مبتكر لوضع العروض، و حصر كل أشعار العرب في بحر، و هو الذي اخترع علم الموسيقى العربية، و جمع فيه أصناف النغم .... فهو يخترع العلم و يتركه لتلاميذه يدونونه ". (أمين، ١٩٣٥ م: ج ٢ / ٢٩٠).

قال بروكلمان: " و لا خلاف بين العلماء، على أنّ الخليل - أيضاً - مبتكر علم العروض ". (بروكلمان، ١٩٥٩ م: ج ٢ / ١٣١).

### المجموعة الثانية

هي التي حملت فكرة أنّ الخليل قد سبق إلى ابتكار علم العروض، و أنه استفاد علمياً من أعمال من سبقه من علماء العرب في الجاهلية أو من علماء الأمم الأخرى كاليونان و الهند. لذلك فهذه المجموعة تشتمل على ثلاث نظريات قديمة مخالفة لإجماع العلماء المتقدم: و هي الآتية:

**النظرية لأولى:** تقول: إنّ الخليل استفاد من أعمال من سبقه من علماء العرب في الجاهلية.

و صاحب هذه النظرية هو أحمد بن فارس المتوفى سنة (٣٩٥ هـ) الذي رأى في نصه التالي الأصالة العربية لعلم العروض إذ اعتقد أن علم العروض كان قديماً قبل الخليل، ثم أتت عليه الأيام، فاندثر، و بعد أن جاء الخليل جدد هذا العلم، و كذلك اعتقاده في علم النحو الذي جدده أبو الأسود بعد أن كان مندثراً.

قال ابن فارس: "فان قال قائل فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية و أن الخليل أول من تكلم في العروض، قيل له: نحن لا ننكر ذلك بل نقول: إن هذين العلمين قد كانا قديماً، و أتت عليهما الأيام و قَلَّ في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان. و قد تقدم دليلنا في معنى الاعراب. و أما العروض، فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا، أو من قال منهم: إنه شعر. فقال الوليد بن المغيرة منكرأ عليهم: لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقرء الشعر هزجه و رجزه و كذا و كذا، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك. أفيقول الوليد هذا و هو لا يعرف بحور الشعر؟ و قد زعم ناس أن علوماً كانت في القرون الأوائل و الزمن المتقدم و أنها درست، و جُددت منذ زمان قريب، و ترجمت، و أصلحت منقولة من لغة إلى لغة. و ليس ما قالوا ببعيد و إن كانت تلك العلوم - بحمد الله و حسن توفيقه - مرفوضة عندنا". (ابن فارس، ١٩٦٣ م: ٣٨).

### مناقشتنا لنظرية ابن فارس

إن ابن فارس قد استدل في نصه المتقدم بالدليلين التاليين:

**الدليل الأول:** أن شعراء الجاهلية و أدباءها كانوا يعرفون بحور الشعر، و أن معرفة بحور الشعر دليل على وجود علم العروض.

### المناقشة

إنني أبدأ تفنيد هذا الدليل بذكر النص التالي، ثم أتلوه باستخلاص الردود، على شكل نقاط. قال الدكتور بدوي طبانة تحت هذا العنوان: «أوزان المعلقات و قوافيها»: "أما الأوزان فقد اهدى إليها أولئك الشعراء بوحى من فطرتهم، و نظموا في تلك الأبحر الشعرية بأذاهم الموسيقية المرهفة التي كانت تصحح أخطاءهم، فكانوا يضبطونها تلقائياً إذا انحرفوا عن مواقع النغم أو وقعوا في شذوذه الذي تنكره أذواقهم و أسماعهم، كما كان لطول التجربة و كثرة المعاناة أثرهما في هذا الضبط و التصحيح من غير معلمين يوقفونهم على مواضع الخطأ و الصواب.

و لا شك أن أولئك الشعراء بطبيعتهم كانوا أكثر الناس إحساساً بموسيقى الشعر و تأثراً بها، و ليس من الطبيعي أن يلقنوا أصول هذه الصناعة من عامة الناس أو من علمائهم، لأن التقنين العلمي و وضع القواعد التي تنظم هذه الصناعة لم يكن لهما وجود في تلك البيئة البدائية، و إنما وضعت تلك القوانين، و نظمت القواعد فيما بعد في عصور الحضارة باستقراء تلك الأبيات و القصائد التي وضع الشعراء فيها بأنفسهم تقاليد هذا الفن و أصوله. و لم يكن أصحاب الملاحظات هم الذين اخترعوا هذه الأوزان التي نراها في قصائدهم و إنما كانت تلك الأوزان و غيرها من تقاليد الشعر ثمرة للتجارب الكثيرة التي عبرها فن الشعر عند المهويين من أبناء الأمة العربية في عصور موعلة في القدم قبل نشأة أصحاب الملاحظات. و ليس هذا المجال مجال البحث في أولية الشعر و تطوره من الحداء إلى الرجز إلى الملاحظات، و انتهائه إلى تلك القصائد الطويلة المحكمة. و قد سبق أن قررنا أن الشعر الذي نقرؤه في الملاحظات كان الصورة المثلى للفن الشعري كما تصوره العرب، أو بعبارة أخرى كان هذا الشعر هو التجربة الأخيرة لهذا الفن بعد أن بانته معالمة بعد المرور بتجارب كثيرة على أيدي عدد كبير من الشعراء، منهم من عرفه التاريخ، و كثير منهم طوى ذكرهم الزمن". (طبانة، ١٩٦٧ م: ٣٨١-٣٨٢).

و أختصر ردود هذا الدليل في النقاط التالية:

- ١- أنه لا يوجد تلازم بين معرفة أنواع الشعر و وجوب أن يكون علم العروض موجوداً قبل ذلك، إذ إن معرفة أنواع الشعر لا تتوقف على علم العروض.
- ٢- أن نظرية ابن فارس هذه تنتهي إلى القول بأن العصر الجاهلي كان مزدهراً بابتكار العلوم التي منها علم العروض، و علم النحو، و أن سوق الترجمة كانت رائجة في ذلك العصر البدائي. و هذا ما أكد التاريخ نفيه .
- ٣- أن نظرية ابن فارس هذه مخالفة لما عليه المحققون من أن الشعر لم يظهر دفعة واحدة، و إنما تمثلت بدايته بالحداء، ثم تطور إلى الرجز، ثم إلى المقطعات، ثم انتهى إلى الملاحظات، و القصائد الطويلة. فكأن ابن فارس يريد أن يقول: إن شعراء الجاهلية تعلموا الوزن أولاً، ثم بدأوا يقولون الشعر وفقاً لما يقتضيه الوزن. و ليت شعري هل يمكن أن يوجد علم الوزن قبل أن يظهر الشعر إلى الوجود؟ و إن علم الوزن أو علم العروض إنما يوجد بعد ظهور الشعر، و تكامل إيقاعاته لأنه يستنبط منه، كما أن علم النحو استنبط من اللغة العربية المتكاملة. ثم قديفهم من كلام ابن فارس أنه ينكر على بلغاء العرب أن يكونوا قد تمتعوا بالحس الموسيقي المرهف و الذوق الإيقاعي المتميز الذي فطروا عليه علماً بأن لغتهم لغة موسيقية إلى درجة أن الوزن ينتشر في النثر دون قصد.

**الدليل الثاني:** الذي استدلل به ابن فارس هو أن ناساً زعموا أن علوماً كانت في القرون الأوائل و الزمن المتفادم، و أنها درست، و جددت منذ زمان قريب، و ترجمت و أصلحت منقولة من لغة إلى لغة، و ذهب إلى أن ما قالوه ليس ببعيد، و إن كانت تلك العلوم مرفوضة عنده.

### المناقشة

و هذا الدليل مردود كسابقه، و أختصر ردي في النقاط التالية:

- ١- أن ابن فارس لم يذكر المصدر الذي ذكر هذه العلوم .
  - ٢- أنه لم يذكر أنواع هذه العلوم.
  - ٣- أنه لم يُعيّن الزمن الذي جددت فيه هذه العلوم، و اكتفى بقوله: «وجدت منذ زمان قريب».
  - ٤- أنه لم يُعيّن الزمن الذي نقلت فيه، كما لم يعين اللغة التي نقلت منها.
- و هكذا نجد الإجماع يحيط بما اعتقده ابن فارس، كما نجد أن الحقائق التاريخية قائمة على خلاف ما ذهب إليه، لأنّ العصر الجاهلي و لا سيما العصر الجاهلي الموعول في القدم، كان عصراً بدائياً خالياً من العلوم.

٥- أنه حمد الله - تعالى - على أن تلك العلوم مرفوضة عنده، أو عند أهل العلم.

و لست أدري هل إن تلك العلوم كانت تمس بكرامة العقيدة الإسلامية ؟

- هذا ما أفهمه من كلامه. و المهم أنه إذا كانت هذه العلوم مرفوضة فهي - بلا شك - ليس من أنواعها علم النحو، و علم العروض، لأنّ إجماع العلماء قائم على قبول هذين العلمين.
- ٦- أن ابن فارس عقد في كتابه «الصاحي في فقه اللغة» هذا باباً أسماه: "باب ذكر ما ما اختصت به العرب". (ابن فارس، ١٩٦٣ م: ٧٧). و لم يذكر فيه إلا ثلاثة أمور أو علوم هي الاعراب «النحو»، و العروض، و حفظ الأنساب .

و إني أجد شيئاً من التناقض بين كلامه هذا و ما ذكره في نصه المتقدم، مما قد يشير إلى أن علم النحو و علم العروض ليسا أصيلين.

- ٧- أن " ما ادعاه ابن فارس .... لا يقوم على حجة، ذلك لأنّ التدوين العلمي بمعناه الفني و الاصطلاحي لم يكن في الجاهلية، لا الجاهلية الأولى، و لا الثانية، و ليس هناك أي سند أو رواية تؤيد هذا الزعم .... كما أنّ هذه الاصطلاحات العلمية و الفنية وليدة حضارة فكرية و عقلية منطقية فنية، هي نبت حضارة و مدنية اجتماعية، و ثقافة خاصة لا تتناسب و طبيعة البداوة". (الزمخشري، ١٩٧٠ م: ١٠)



### مناقشتنا لمن أيد نظرية ابن فارس من الباحثين المحدثين

إنَّ الدكتور مصطفى السنجرجي المصري قد أيد في نصه التالي نظرية ابن فارس و استدل لها برواية؛ قال الدكتور السنجرجي: "و مما يؤيد مذهب ابن فارس ما روي من أنَّ الخليل سئل هل للعروض أصل عند العرب؟ قال: نعم، مررت بالمدينة حاجاً، فرأيت شيخاً يعلم غلاماً، يقول له: قل: نعم لا. نعم لا لا. نعم لا. نعم لا لا لا. نعم لا. نعم لا لا لا."

قلت له: ما هذا الذي تقوله للصبي؟ فقال: علم يتوارثونه عن سلفهم، يسمونه «التنعيم» لقولهم فيه «نعم»، قال الخليل: فرجعت بعد الحج، فأحكمتها.

و في ضوء هذه الرواية نستطيع أن نقرر أنَّ الخليل قد وزن «نعم لا» بكلمة: «فعولن» و «نعم لا لا» بكلمة «مفاعيلن»، وهكذا، و يمكن أن نقول: إنَّ هذا الوزن هو الوزن القديم للبحر الطويل. و أرى أنَّ نسبة الوضع إلى الخليل تعني أنه أول من أبرز علماً مكتملاً ذا أصول و قواعد و إن كانت قبله محاولات بدائية في هذا المجال، و الأمر كذلك بالنسبة لموقف أبي الأسود من علم النحو". (السنجرجي، ١٩٧٤ م: ٧).

### المنافشة

أختصر مناقشتي للدكتور السنجرجي في النقاط الثلاث التالية:

١- أنَّ طريقة التنعيم هذه قاصرة، لا تجري في جميع البحور الشعرية، إذ إنها لا تشمل البحر الكامل، و البحر الوافر، و غيرهما، إلَّا بتأول متصور، لأنَّ رواية التنعيم لم تشر إلى مثل: «نَعَم نَع لا» و «لالالان»، في حين أنَّ هذه الأجر كانت موجودة في الشعر الجاهلي إذ إنَّ معلقة ليبيد و معلقة عنترة من بحر الكامل و إنَّ معلقة عمرو بن كلثوم من بحر الوافر.

٢- أنَّ الدوائر العروضية التي ابتكرها الخليل بن أحمد خير دليل على أصالة عمله، و أنَّ تفعيلاته الكاملة التي استغرقت جميع البحور الشعرية تدل على عمل علمي مبتكر أصيل غير مفتقر إلى عمل سابق.

٣- أنَّ العلماء أجمعوا على أنَّ الخليل هو أول من ابتكر هذا العلم، و قد مر هذا في بداية هذا الموضوع.

**النظرية الثانية:** تقول: إنَّ الخليل استفاد من أعمال من سبقه من علماء اليونان، و استناداً لما يفهم من كلام أبي الريحان البيروني نستطيع أن نزعج أنَّ هذه النظرية نظرية قديمة، لكنَّ بعض الباحثين المعاصرين مثل الجارم تبنى هذه النظرية مستنداً بورود لفظة «ميترا» في كتاب الباقلاني.

**النظرية الثالثة:** تقول: إنَّ الخليل استفاده من أعمال مَنْ سبقه من علماء الهند، و هذه النظرية قديمة أيضاً. و قد تبناها بعض الدارسين المحدثين مثل الدكتور صفاء خلوصي، و هو لا يعلم - كما يبدو من كلامه - أنَّها نظرية قديمة.

### مناقشتنا للنظريتين المتقدمتين

أبدأ مناقشتي لهاتين النظريتين المتقدمتين بالمقدمة التالية، ثم أناقش كلاً منهما على حدة: إنَّ "الشعر في كل أمة يتزع أول أمره مترعاً فطرياً توحى به الفطرة و تدفع إليه السليقة و الشعراء منهم يقولون الشعر فيأتون به سليماً وفق القوانين الذوقية العامة المستنبطة من ذوق الأمة العام، قبل أن يفكروا في القوانين أنفسهم، و قبل أن يعرفوا الأوزان التي ينظمون عليها، و العيوب التي تعرض للشعر قوافيه و أوزانه، و يبقى الشعر هكذا فطرياً سليماً مادامت لغة الأمة بعيدة عن التعرض لخطر يهدد كيانها بتهديد تراثها". (المخزومي، ١٩٨٦ م: ١٩١). "و الحق الذي لامراء فيه أنَّ مقاييس الشعر أو أوزانه قد استخلصت من ضروب الغناء المختلفة التي كان العرب منذ عصورهم الأولى يتغنون بها في بواديهم و هم يتنقلون، و في حلهم حين يستقرون مستنبطة من طبائعهم و نزعات أنفسهم و سلاقتهم و أمزجتهم، فالبدوي يتغنى و يترنم و هو على ظهر بعيره أو فرسه يساوق بين ترجيعه و رسم ناقته ... أو يجدو بناقته أو قافلته، و يتغنى و يُرَجِّع، و هو في الحرب يُصاول، و ينازل، و يكر، و يفر، أو يلاعب الأسنة و القرناء زهواً و خيلاء، و كذا هو في أفراحه و فواجعه، و مآتمه، و أعراسه يترنم جذلاً، أو يندب حزناً، و كل ذلك غناء و ألحان و شعر، فالشعر قرين الغناء، وجد مع الغناء، و الغناء وجد مع الإنسان.

فالأوزان الشعرية ليست إلّا مقاييس لما تغنت به العرب، و ضبطوها فيما بعد بهذه المقاطع و الحركات و السكّنات، و كان بذلك علم العروض: و هو معرفة تلك الأوزان و المقاييس، و وضعت له الأسماء و المصطلحات، فهو في مفهومه و معناه علم قديم لا يعرف له مبدأ، مستخلص من السليقة العربية، يعرفونه من غير تعلم، كما عرفوا إعراب كلامهم بالسليقة و النشأة التي نشأوا عليها من غير تعلم أيضاً". (الزمخشري، ١٩٧٠ م: ٧).

و إنَّ "أكبر الظنَّ أنَّ العروض قضية اجتماعية تدفع إلى تحقيقها حاجة اجتماعية عارضة، و تحدو إليها الرغبة في المحافظة على سلامة التراث القومي، و إنَّ أمة من الأمم لا تشعر بضرورتها إلّا حين تحيط بها ظروف يخشى منها على كيان أو تراث و أنَّ اليونان لم يشعروا بالحاجة إلى العروض إلّا بعد أن أخذت اليونان تتوسع، و تختلط بأهل البلاد المفتوحة الذين أخذوا يشاركونها ثقافتها و علومها، و يحاكونها في فنونها، و منها الشعر، و لا يخفى ما يستتبع ذلك من أخطار تهدد سلامته". (المخزومي، ١٩٨٦ م: ١٩١).

و لا شك أن "العروض العربي لم ينشأ إلا حين دعت إليه الحاجة و لم تنسم هذه الحاجة بالضرورة إلا بعد أن اختلط العرب بغيرهم، و عاشوا في بيئة واحدة، يتبادلون في العيش و العادات و الثقافات، و إلا بعد أن أخذت تفد على المجتمعات العربية مع الوافدين الأجانب أوزان لم يكن للعرب بما عهد. و كان الخليل بن أحمد في هذا هو المتحمل لهذه التبعة، و المنقذ للتراث العربي، حين شعر بالخطر يهدده". (المصدر نفسه، ١٩٢).

لقد فهمنا من المقدمة المتقدمة الأمرين التاليين:

**الأمر الأول:** أن الشعر ظهر أول أمره بدافع فطري سليقي تحكمه القوانين الذوقية العامة المستنبطه من ذوق الأمة العام.

**الأمر الثاني:** أن الدافع لوضع هذه القوانين الذوقية، و إخراجها بشكل علم هو الحاجة الاجتماعية العارضة، و الخوف على كيان التراث القومي للأمة أية أمة كانت. فالدافع لوضع علم العروض هو الخشية من الظروف الطارئة على سلامة التراث القومي في كل أمة، و هذا ما حدث فعلاً لليونان و الهنود و العرب على حد سواء.

فالدافع لإيجاد علم العروض عند اليونان و الهنود و العرب هو دافع اجتماعي ثقافي واحد دون أن تتأثر أمة بأمة أخرى.

و لا شك أن مجرد التشابه بين عروض هذه الأمم الثلاث لا يثبت أمراً. لأنه تشابه ناتج عن تشابه القوانين التي يسير عليها الفكر البشري. و أما ما يخص النظرية الثانية — التي ذهبت إلى أن الخليل قد استفاد من علماء اليونان بدليل وجود كلمة «ميتير» اليونانية التي وردت في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني — فاننا نجيب بالأوجه الثلاثة التالية إضافة لما تقدم بيانه:

**الوجه الأول:** أن أصحاب هذه النظرية قد اعتبروا كلمة «ميتير» يونانية، و استدلوا بورودها في قصة نقلها الباقلائي، استدلوا بذلك على أن الخليل قد استفاد من عمل علماء اليونان في هذا المجال. لكن حقيقة الأمر على خلاف ما اعتبروه، و ما استدلوا به: لأهم نقلوا هذه الكلمة من كتاب إعجاز القرآن للباقلاني خطأ، إذ قد نقلوها هكذا: «ميتير» في حين أثبتتها الباقلائي هكذا: «متير»، و فسرها بالقطع و الجذب، و لا شك أن كلمة «متير» بهذا المعنى عربية و ليست يونانية، و الدليل على ذلك الأمران التاليان:

**الأمر الأول:** أن الباقلائي الذي أورد هذه الكلمة قال: "و حكى لي بعضهم عن أبي عمر غلام ثعلب عن ثعلب: أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول، يوضع على بعض أوزان الشعر، كأنه على وزن:

## قفا نيك من ذكرى حبيب و مزل

و يسمون ذلك الوضع «المتير»، و اشتقاقه من المتر، و هو الجذب أو القطع، يقال: «مترتُ الحبل» أي: قطعته، أو جذبته. و لم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره". (الباقلائي، ١٩٧٧ م: ٦٣).

فالباقلائي لحسن الحظ لم يترك في هذا النص كلمة «المتير» دون تفسير، بل فسرها بالقطع و الجذب.

و إن رجعت إلى مصادر اللغة، مادة (متر)، فوجدت ذلك فيها على النحو التالي:

المتر: القطع، و مدُّ الحبل، و الجماع، و الجذب.

متره مترًا: قطعه.

و متر الحبل يمترُهُ: مده.

و التماثر: التجاذب.

و يقال: رأيت النار من الزند تماثرًا: أي: تترامى، و تتساقط. (ابن منظور، ١٩٩٩ م: مادة «متر» و الفيروز آبادي، ١٩٨٧ م: مادة «متر»). كل ذلك يدل على أن كلمة «المتير» عربية مع هذه الاستعمالات و الاشتقاقات المختلفة.

**الأمر الثاني:** أن الباقلائي لم يشير إلى أن هذه الكلمة «المتير» غير عربية، كما أن ابن منظور، صاحب لسان العرب، و الفيروز آبادي، صاحب القاموس، لم يذكر أن هذه الكلمة غير عربية. و إذا صح ما قدمناه، فلا يجوز، و لا يصح الاستدلال بهذه الكلمة «المتير» على أن الخليل استفاد من علم العروض اليوناني، لأن هذه الكلمة عربية خالصة.

**الوجه الثاني:** أننا ذكرنا، فيما سبق، أن مجرد وجود التشابه لا يثبت، بالضرورة، أمرًا فكثير من أوجه الشبه بين عاملين ناتج عن تشابه القوانين التي يسير عليها الفكر البشري، فإذا ما عرضت للفكر العربي حاجة عرضت مثلها لليونان و الهند، فأدت إلى وجود النحو العربي، أو العروض العربي، فإن ذلك لا يعني أن ما قام به العرب من أعمال متأثر تأثيراً مباشراً، أو مقتبس اقتباساً من أعمال اليونان أو الهند". (المخرومي، ١٩٨٦ م: ١٩٢).

و هذا أمر عام شامل لجميع العلوم التي تبتكرها الأمم بدافع الحاجة، لكن علماء العروض القدامى قد نصوا على التشابه الموجود بين الأمم المختلفة في الوزن و القافية .

قال الزمخشري: " فهذه أربعة أشياء: اللفظ، و المعنى، و الوزن، و القافية. فاللفظ وحده هو الذي يقع فيه الاختلاف بين العرب و العجم، فإنَّ العربي يأتي به عربياً و العجمي عجمياً. فأما الثلاثة

الأخر، فالأمر فيها على التساوي بين الأمم قاطبة .... و ذلك لأن الأمم عن آخرها متساوقة إلى المعاني والقوافي، و الافتنان فيها لا اختصاص لها بأمة دون أمة ". (الزمخشري، ١٩٧٠ م: ٥٦) و هذا أبو الريحان البيروني نفسه قد أقر بهذه الحقيقة من قبل، فقال: " النفس توافقة إلى كل ما له تناسب و نظام، و مشتمرة عما لا نظام له ". (البيروني، ١٩٨٣ م: ٩٦)

و هذه حقيقة ثابتة كالشمس في وضوح النهار. " فالشعر، و هو صنو الغناء، و كموهبة نابعة من طبيعة اللسان و العاطفة و الحياة، المقيس بهذه الأوزان و الألحان مما تشترك فيه جميع الأقوام، فلكل أمة و شعب غناء و شعر و كما دوّن الموسيقيون تلك الأغاني و الألحان من الناحية الصوتية بتلك الإشارات الرامزة و الخطوط «النوطة» للغناء و العزف بمقتضاها، دوّن أهل الأدب من الناحية اللفظية ما يُتغنّى به، و يُنشد بتلك الأوزان التي وضعوها في قوالب التفعيلات العروضية". (الزمخشري، ١٩٧٠ م: ٨).

**الوجه الثالث:** أن الباقلاني قد ذكر في الحكاية أن العرب كانوا يعلمون أولادهم الشعر بوضعه على بعض أوزان الشعر المعروفة عند شعراء العرب البارزين نحو الوزن الذي عليه عليه معلقة امرئ القيس، و الذي هو بحر الطويل. و لا شك أنه لا دليل في ذلك على أن العروض العربي مأخوذ من العروض اليوناني، أو متأثر به، لأن العرب بعد زمان امرئ القيس، و هو الزمن الاسلامي على ما يبدو، كانوا يعلمون أولادهم أوزان أشعار أسلافهم. بل يمكن القول إن ذلك وقع " بعد أن ترجم عروض اليونان ". (المخزومي، ١٩٨٦ م: ١٩٣).

و أما ما يخص النظرية الثالثة - التي ذهبت إلى أن الخليل استفاد من أعمال علماء الهند - فإضافة لما تقدم بيانه في المقدمة، نذكر النقاط التالية: تفصيلاً لهذه النظرية:

**النقطة الأولى:** " أكبر الظن أن الهند لم تتعرض للخطر إلا بعد أن اجتاحت العرب قسماً من أراضيها في عهد الحجاج، و على يد محمد بن القاسم الثقفي ..... فليس المدارس بمتجن إذا قال بأن الهنود لم يفكروا بالعروض و لم يشعروا بضرورة وجوده إلا بعد أن شعروا بالخطر يتهدد كيانهم و تراثهم الذي يعتزون به ... .

و العروض العربي لم ينشأ إلا حين دعت إليه الحاجة، و لم تتسم هذه الحاجة بالضرورة إلا بعد أن اختلط العرب بغيرهم ". (المصدر نفسه، ١٩٢) لذلك فبسبب ظهور علم العروض العربي هو نفسه الذي أدى إلى ظهور علم العروض السنسكريتي، فلا داعي لاحتمال تأثير أحد العلمين في الآخر.

**النقطة الثانية:** أن أبا الريحان البيروني ذكر اصطلاحاً عروضياً استعمله اليونان و الهنود على حد سواء، فليت شعري على ماذا يمكن أن يستدل بذلك؟ هل يستدل به على أن العروض اليوناني مأخوذ من العروض السنسكريتي، أو يستدل به على أن العروض السنسكريتي مأخوذ من العروض اليوناني؟. لا شك أن القول بأحد هذين متوقف على تحقق أمور منها ما يلي:

**الأمر الأول:** معرفة الأقدم منهما، لأنَّ الأسبق زماناً هو الذي يكون موثقاً عادة، لذلك فمعرفة الأسبق أمر ضروري جداً في هذا المجال.

**الأمر الثاني:** معرفة ما إذا كان هذا المصطلح مستعمل بنفس اللفظ و المعنى أو أنه مستعمل بمعنى آخر، لأنَّ استعماله بمعنى آخر لا يدل على التأثير و التأثير، كما لو كان مستعملاً بنفس المعنى، لأنَّ ذلك يضعف الاستدلال به في هذا المجال.

**الأمر الثالث:** التأكد من أن هذا المصطلح لم يأخذ طريقه إلى علم الأمة الأخرى بواسطة استحسان العلماء له لخصته و سهولة جريانه على الألسن، لأنه إذا تحقق الأمران: الأول و الثاني فقط فاننا لا نستطيع أن نقطع بالتأثير و التأثير، لا مكان أن تكون إحدى الأمتين قد أعجبتها مصطلح أمة أخرى، و استحسنته لخصته و دلالاته و سهولة جريانه على الألسن، فاستعارته. لذلك فوجود مصطلح من مصطلحات علم قوم بين مصطلحات علم قوم آخرين لا يدل على أن علم هؤلاء مأخوذ من علم أولئك، لأنَّ القول بتأثير علم قوم بنظيره لقوم آخر ليس ليس بهذه السهولة، و لا يتم بادعاء عار من الدليل العلمي خصوصاً في علم العروض الذي هو علم ميزان الشعر الذي يرتبط ارتباطاً مباشراً بمشاعر البشر، و عواطفهم و خيالهم الأدبية، لأنهم مشتركون في كل ذلك إلى حد بعيد، و أن الدافع لظهور علم العروض في جميع الأمم التي ظهر فيها هو دافع واحد مشترك أيضاً و هو "الرغبة في المحافظة على سلامة التراث القومي". (المصدر نفسه: ١٩١) فإينما وجد هذا الدافع ظهر علم العروض ليحفظ الشعر، و يصونه ليبقى مرآة تعكس أصالة تراث أصحابه. و لا شك أن هذا الاشتراك لا يدل على التأثير و التأثير مطلقاً.

و المهم أنه إذا كان ذلك كذلك، فهل يعقل أن يكون علم العروض العربي مأخوذاً من علم العروض السنسكريتي، أو متأثراً به مع أصالة جميع مصطلحاته، و خلوه من أي مصطلح سنسكريتي؟.

**النقطة الثالثة:** أن البيروني - الذي هو المصدر القديم الوحيد المعتمد في القول بأنَّ الخليل متأثر بعلماء الهند - هو غير متأكد من أن الخليل قد سمع أنَّ للهند علماء في العروض. قال البيروني: "و إنما طوّلت في الحكاية، و إن نزلت عائدتها... ليعرف أنَّ الخليل بن أحمد كان موفقاً في الاقتضابات، و إن كان ممكناً أن يكون سمع أنَّ للهند موازين في الأشعار كما ظن به بعض الناس". (المصدر نفسه، ١٠٤).

واضح من هذا النص أنَّ أبا الريحان البيروني، لم يثبت عنده أنَّ الخليل قد سمع بعلم العروض السنسكريتي، و إذا كان ذلك كذلك فهل يبقى مجال لاحتمال أن يكون البيروني قد اعتقد أنَّ الخليل قد تأثر فعلاً بالعروض الهندي و استفاد منه؟ الجواب: لا.

**النقطة الرابعة:** أنه كيف يعقل، و يجوز أن يكون علم العروض العربي مأخوذاً من علم العروض الهندي و الدكتور صفاء خلوصي الذي اعتقد ذلك، قد ذكر نفسه أن هذين العروضيين متباينان، لأنَّ

العروض العربي قائم على أسلوب الكم الذي يعتمد على عدد الحروف في حين أن العروض السنسكريتي قائم على أسلوب الكيف الذي يعتمد على النبرات بدليل أنهم يجمعون عدة كثيرة متوالية من السواكن، و العرب لم تجمع بين ساكنين إلا في الحرفين الأخيرين من البيت قال الدكتور صفاء خلوصي: " و لم يبين البيروني - مع الأسف ما إذا كان العروض السنسكريتي قائماً على أسلوب الكم العربي، أم أسلوب الكيف الافرنجي و هذا الأخير يعتمد على النبرات أكثر من اعتماده على عدد الحروف في كل نبرة، و يبدو لي من سياق كلام البيروني أنه أقرب إلى أسلوب النبرات الافرنجي منه إلى أسلوب (عدد الحروف) العربي بدليل ما يذكره من جمعهم عدة كثيرة متوالية من علامات الخفيف ". (الزمخشري، ١٩٧٠: ٢٢).

و المهم أنه إذا كان العروضان متباينين فكيف يجوز أن يكون أحدهما مأخوذاً من الآخر؟ أضف إلى ذلك أن الدكتور صفاء خلوصي قد أكد " أن الاشباع الذي هو الزامي في القافية العربية يعتبر اختيارياً في العروض السنسكريتي، ذلك لأن القافية العربية أكثر دقة و إتقاناً من القافية السنسكريتية، إن وجدت، مع ذلك فإن السنسكريتية تكره القافية الموحدة، خلافاً للعربية ". (المصدر نفسه،: ٢٥).

**النقطة الخامسة:** أننا نعلم أن القافية جزء لا يتجزؤ من عروض الشعر، و ارتباطها بالعروض ارتباط أساسي محكم بحيث وجدنا بعض الباحثين المعاصرين مثل الدكتور إبراهيم أنيس، قد اعتبر فصل العلماء القدماء لعلم القافية عن علم العروض غلو، فقال: " لقد بلغ من غلوهم في هذا الأمر أن جعلوا القافية علماً مستقلاً له قواعده، و له مصطلحاته ". (أنيس، ١٩٧٨ م: ٥٢).

فالقافية لا تختلف عن بقية كلمات البيت من جهة وجوب أن تحمل نفس وزن البيت، و أن الذي يميزها عن بقية كلمات البيت أن حروفها أو أكثرها تختص بأحكام نغمية، لأنها تؤلف بمجموعها جرساً جميلاً يؤذن بتمام البيت، و يضيف نغماً خاصاً إلى إيقاع البيت، فيطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة، و بعد عدد معين من التفعيلات، لذلك اهتم بها العرب منذ القدم. و المهم أن القافية داخلية في العروض، و موزونة به. و لا شك أن القافية العربية أصيلة، و غير مأخوذة من أي قوم أو أمة، بل لعل العرب أقدم من استعمل القافية من بين أمم الأرض، و هذا ما أقر به أغلب الباحثين المعاصرين حتى المستشرقون، و حتى أولئك الذين اعتقدوا بأن العروض العربي مأخوذ من العروض السنسكريتي مثل الدكتور صفاء خلوصي الذي أقر في نصه التالي أن القافية العربية أصيلة عريقة، قال الدكتور خلوصي: " و ربما كانوا أول من استعمل القافية بين أمم الأرض، على رأي المستشرق الفرنسي (رينو) في كتابه: (فتوحات العرب في فرانس)، إذ يقول ما ترجمته: (ينسب إلى العرب البدو أول استعمال

للقافية، و الغزل العذري، و شعر الحماسة، فالقافية كانت معروفة عند العرب قبل الخليل، تكلم عليها أبو عمرو بن العلاء في كثير من مجالسه " (الزحشري، ١٩٧٠ م: ١٩ - ٢٠).  
 لكن العرب القدماء قبل الخليل لم يتكلموا عن القافية إلاّ لألها وسيلة تعبيرية مستقلة بنفسها عن البناء العروضي للبيت " (عوي، ١٩٧٧ م: ٨٠ - ٨١). لكنهم لم يتكلموا عنها كعلم قائم مستقل. و المهم أنه إذا كان ذلك كذلك، فهل يعقل أن يستقل علماء العروض العربي بايجاد علم القافية، و يعجزوا عن الاستقلال بايجاد علم العروض، علماً بأنّ القافية جزء العروض؟.

### السبب الذي دفع الخليل إلى وضع علم العروض

إنني - فيما يخص الخليل و العلم الذي أوجده - انتهيت إلى التمييز بين السبب و الهدف. إذ قد وجدت سبباً دفع الخليل إلى ايجاد هذا العلم، كما وجدت غرضاً كان الخليل يريد أن يصل إليه، و يحققه، فالسبب الذي دفعه إلى وضع هذا العلم سبب أصيل هادف. لذلك فإني أميز - هنا - بين السبب و الغرض، لأنهما موجودان هنا. فالسبب هو الذي يدفع المؤسس صاحب العمل الهادف إلى تحقيق هدفه لذلك أقول: اشتهر أن سبب وضع علم العروض هو أن الخليل بن أحمد الفراهيدي لما رأى ما اجترأ عليه الشعراء المحدثون في عصره من النظم على أوزان لم تسمع عن العرب، هاله ذلك، فعقد العزم على وضع علم يحفظ به أوزان الشعر العربي، و يحصنها. ثم خرج بعد حين على الناس و قد حصر أوزان الشعر العربي، و ضبط أحوال قوافيه. فأخرج لهم هذا العلم الجليل. (أنيس، ١٩٧٨ م: ٤٩).

و ذكر فيرواية أخرى أن الخليل " تعلق بأستار الكعبة، و قال: اللهم، ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأولون، و لا يأخذه إلاّ عني الآخرون، ثم رجع، و عمل العروض " (اللغوي، ١٩٧٤ م: ٥٨).  
 إنني، مع أنني لا أنفي هذين السببين المتقدمين، أعتقد وجود سبب آخر مباشر و هادف و يترتب عليه غرض نبيل يتناسب مع شخصية الخليل العلمية و الدينية و هذا السبب هو أن الخليل لاحظ اختلال السليقة العربية، و زيغ الملكات اللسانية، و تكدر الحاسة الموسيقية المرهفة، و تصدعها، و معلوم أن هذا يؤدي إلى وقوع التغيير في اللفظ و التشكيل حال رواية الشعر، أو إنشاده إذ لا عاصم من ذلك.

فالسبب هو الخوف من حدوث هذا التغيير. و لا شك أن ذلك يفرض على علماء مخلصين من أمثال الخليل بن أحمد، أن يبحثوا عن شيء يحل محل تلك السليقة المرهفة التي بدأت تختفي من الوجود، و يسد مسدها ليكون عاصماً و صائناً للشعر من هذا التغيير الذي يؤدي إلى إبطال الثقة بالشعر، و منع الاستشهاد بلغاته و ألفاظه و معانيه، و إذا حصل كل ذلك فلا يجوز الاستعانة بالشعر على فهم القرآن الكريم و الحديث الشريف، و درك معانيهما البلاغية، و بذلك يفقد الشعر دوره



الوظيفي و نفقده نحن مصدرأ هو الحجته الوحيدة التي نرجع إليها، و نستعين بها على تفسير القرآن المجيد و الحديث الشريف.

و حاصل الكلام أن وقوع التغيير - أو احتمال وقوعه - هو السبب الحقيقي المباشر الذي دعا الخليل، و دفعه إلى وضع علم العروض. فضبط به الشعر العربي وصانه عن كل ما يبطل بكلماته، و يمنع من الاستشهاد بلغاته و معانيه البلاغية، و حول دون الاستدلال به، و ذلك ليتحقق الهدف المنشود، و الغرض المقصود الذي هو أن يستطيع الشعر تأدية دوره الوظيفي في خدمة القرآن الكريم و الحديث الشريف، و هذا الرأي أليق بشخصية الخليل و مكانته.

### الغرض من وضع علم العروض

يبدو أن العلماء القدامى ذكروا أكثر من غرض قصده الخليل حين عزم على وضع علم العروض. و إنني أذكر - فيما يلي - ما اطلعت عليه منها، ثم أتبعها بذكر الغرض الذي أراه أقرب إلى الواقع، و لذلك أقول: إنني اطلعت على غرضين هما الآتيان: **الغرض الأول:** هو الذي ذكره أبو إسحاق الزجاج، و هو التمييز بين الشعر و غيره، فالكلام الذي ينظم على محور الشعر العربي التي ضبطها الخليل في علم العروض يعتبر شعراً و الكلام الذي ينظم على غير هذه المحور لا يعتبر شعراً، و إن كان موزوناً و مقفى كما أن الجمل المنسوجة على خلاف قواعد النحو لا يعتبر كلاماً عربياً فصيحاً. قال أبو يعقوب السكاكي ناقلاً رأي الزجاج: " و مذهب الإمام أبي إسحاق الزجاج في الشعر هو أن لا بد من أن يكون الوزن من الأوزان التي عليها أشعار العرب، و إلا فلا يكون شعراً ". (السكاكي، ١٩٨٧ م: ٥١٧).

لكن السكاكي عقب على هذا الرأي، فقال: " و لا أدري أحداً تبعه في مذهبه هذا". (المصدر نفسه، ٥١٧).

**الغرض الثاني:** هو الذي ذكره الزمخشري و هو حصر الأوزان التي قالت عليها العرب أشعارها فقط، قال الزمخشري: " و إنما الغرض حصر الأوزان التي قالت عليها العرب أشعارها ". (الزمخشري، ١٩٧٠: ٥٧). و هذا الرأي ليس بقريب من الواقع أيضاً، لأن الخليل - كما عرف عنه غالباً - لا يقوم بعمل إلا إذا أفاد فائدة علمية مشفوعة بخدمة للقرآن الكريم و الحديث الشريف. فهو - كما عرفته الحضارة الإسلامية - متره عن أن يُجهد نفسه، و يُكرّس حياته في أمر لا طائل تحته للدين الإسلامي الحنيف، و عليه يجب أن يكون غرضه من وضع علم العروض أليق بشأنه و أنسب لمكانته، فإن صيانة الأوزان و تقييدها و عدم السماح للتطور أن يدخل ساحتها سواء أكان ذلك لغرض أن يُعلم أن ما

ينظم على غيرها ليس شعراً عربياً، أم كان الغرض حصرها فقط، لأموراً لا جدوى، و لا خدمة فيها للدين، و لا فائدة علمية تتوخى منها، فإن كل شئ يرتبط باللغة لسائر نحو التطور و التحوّل و التجدد، و لا أحد يجهل هذه المسيرة الطبيعية التي لا يحول دونها شئ. و كذا الأمر بالنسبة للغرض الذي لأجله وضع علم النحو، فانما وضع هذا العلم لفائدة علمية دينية، إذ قد حفظ هذا العلم الخليل - أعني علم النحو - اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، و جعل العرب على طول الزمن و مر الدهور قريبين من القرآن الكريم و الحديث الشريف مرتبطين بهما مهما ابتعدت بهم لهجاتهم المتباينة بتقادم الزمان عن تلك اللغة الفصحى. فهم ينهلون منهما ما شاءوا متى شاءوا كما سهل علم النحو على المسلمين من غير العرب الاستفادة من القرآن الكريم و الحديث الشريف حتى صار العرب و غيرهم من المسلمين اليوم متساوين في وجوب تعلم قواعد هذا العلم. لذلك كان لهذا العلم دور ذو خطر جسيم و أهمية كبرى في خدمة الدين الإسلامي الخفيف إذ لولا علم النحو. فالسبب الدافع إلى ابتكار علم النحو هو شيوع اللحن أو قل هو التغيير الذي لا بد للغة منه. أما الغرض، فهو خدمة الدين الإسلامي الخفيف فالسبب هادف يتبعه غرض سام شريف. و المهم أي أرى أن غرض الخليل من وضع علم العروض مرتبط ارتباطاً وثيقاً بدوره الفعال في تكميل هذا الدور المهم لعلم النحو الذي بدأه أمير المؤمنين عليّ - عليه السلام - و أكد على مواصلته، و ذلك بصيانة الشعر عن كل ما يبطل الثقة بكلماته، و يمنع من الاستشهاد به لفظاً و معنى. فالغرض الحقيقي من وضع علم العروض إنما هو صيانة الشعر من التغيير ليحافظ على دوره الوظيفي الفاعل في خدمة القرآن الكريم و الحديث الشريف، و عليه فأهمية علم العروض ناشئة من خطورة الدور الوظيفي الذي يلعبه الشعر العربي في تيسير معرفة ما في القرآن الكريم و الحديث الشريف من لغات و معاني. و معلوم أن الخليل بعمله هذا قد حفظ هذا لتراث الفكري.

و قد أعانني على هذا الذي قدمته كلام أبي بكر الششتري، حيث قال: "لما كان ديوان العرب المثقف لأخبارها و المقيد لأوزان كلامها و المبين لمعاني ألفاظها و المنبّه على آدابها و مكارم أخلاقها، و كان حجة ترجع إليها في تفسير ما أشكل من كتاب الله - تعالى - و مفرعاً يلجأ إليه في بيان ما استبهم من حديث رسول الله - صلى الله عليه و آله و سلم - رأيت أن العناية بمعرفة أوزانه، مهمة في الدين متعيّنه على كافة من يقوم بها من كافة المسلمين، لأن الجهل بالوزن يؤدي إلى تغيير اللفظ بتحريك ساكن أو إسكان متحرك أو تخفيف مشدد أو تشديد مخفف و ذلك يبطل الثقة بكلماته و

يمنع الاستشهاد بلغاته لتعرضها للاحتمال عند مَنْ يجهل الوزن، و ما كانت هذه سبيله فلا يجوز الاستدلال به إذ ليس أحدُ محتملاته بأولى به من الآخر". (الشنتيني، ١٩٦٨ م: ١١).

#### النتيجة

أن هذه المقالة قد عرضت موضوعها على بساط البحث، و عاجلته علمياً بإيجاز ملحوظ ليسهل على المتلقي تناوله، و قد تمخضت المناقشات العلمية عن إثبات أصالة علم العروض، و أنه ولىـد الحضارة الاسلامية .

و قد ثبت في خلال البحث أن المصطلح العروضي (المثير) الوارد في كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني، و الذي استدل به بعض الدارسين المحدثين على أنه مصطلح عروضي يوناني دالّ على أن الخليل بن أحمد أخذ العروض العربي من العروض اليوناني، ثبت أنه ليس مصطلحاً عروضياً يونانياً، و أن المستدل به قد أخطأ عمداً أو سهواً في نقل هذا المصطلح من كتاب الباقلاني مدعياً أنه (المثير) في حين أن الموجود و المثبت في الكتاب هو (المثير) الذي هو مصطلح عربي استعمل منذ الجاهلية .

#### المصادر و المراجع

- ابن خلكان، و فيات الأعيان و أنباء أنباء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، سنة ١٩٦٩ م.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الآداب، تحقيق محمد الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٣٤ م.
- ابن فارس، أحمد، الصحاحي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشوملي، مؤسسة بدران لطباعة و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٣ م.
- ابن المعتز، طبقات الشعراء، العباسي، تحقيق الدكتور صلاح الدين الهواري، دار و مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٢ م.
- ابن منظور، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب و آخر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٩٩ م.
- ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، سنة ١٩٧٨ م.
- الأزهرى، أبي منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ سنة ٢٠٠١ م.
- أمين، أحمد، ضحى الاسلام، الطبعة العاشرة، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، سنة ١٩٣٥ م.
- الأمين العاملي، السيد محسن، أعيان الشعبية، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، سنة ١٩٨٣ م.
- الأنباري، أبي البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار تحضة مصر، القاهرة، سنة ١٩٦٧ م.
- أنيس، إبراهيم، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٨ م.
- الباقلاني، أبي بكر، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٧ م.

- بروكلمان كارل ، تاريخ الأدب العربي، ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٥٩ م.
- البيروني، أبي الريحان ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٩٨٣ م.
- الجاحظ، ابوعثمان عمرو بن بشر؛ رسائل الجاحظ — قدم لها و شرحها الدكتور علي أبو ملحم — دار و مكتبة الهلال — بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٧ م.
- الجمحي، ابن سلام؛ طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة
- الحموي، ياقوت ، معجم الأديباء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩١ م.
- الرازي، عبد الحميد، شرح تحفة الخليل في العروض و القافية، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٧٥ م.
- الزبيدي، طبقات النحويين و اللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٣ م.
- الزمخشري، القسطلاس المستقيم في علم العروض، تحقيق الدكتورة قميحة الحسيني، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، سنة ١٩٧٠ م.
- السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٧ م.
- السيراقي، أبي سعيد، أخبار النحويين البصريين، تحقيق فرينس كرنكو، بيروت، الطبعة الأولى، المطبعة الكاثوليكية، سنة ١٩٣٦ م.
- السيوطي، جلال الدين ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار الفكر، سنة ١٩٧٩ م.
- السيد، عبد الرحمن، مدرسة البصرة نشأتها و تطورها، مطابع سجل العرب، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٨ م.
- الشنتريني الأندلسي، أبي بكر، المعيار في أوزان الأشعار، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، الطبعة الأولى، دار الأنوار، بيروت لبنان، سنة ١٩٦٨ م.
- طبانة، بدوي معلقات العرب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٧ م.
- عبد العزيز، مصطفى، السنجرجي، المدخل في علم العروض، مكتبة الشباب، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٤ م.
- العروضي، أبي الحسن، الجامع في العروض و القوافي، تحقيق الدكتور زهير غازي و آخر، دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٦ م.
- عوني، محمد، القافية و الأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٧ م.
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٧ م.
- القفطي جمال الدين ، نباه الرواة على أبناء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، سنة ١٩٥٠ م.
- الكاتب، أبي الحسين ، البرهان في وجوه البيان، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب، و الدكتورة خديجة الحديشي، جامعة بغداد، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٧ م.
- اللغوي، أبي الطيب، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نمضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٤ م.
- المخزومي، مهدي، الخليل بن أحمد الفراهيدي: أعماله و منهجه، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦ م

## علم عروض میان اصالت و عدم اصالت

دکتر محمد ابراهیم خلیفه شوشتری  
استادیار زبان و ادبیات عربی دانشگاه شهید بهشتی

### چکیده

واقعیت تاریخی گواه آن است که علم عروض همانند علم نحو زاینده تمدن اسلامی است، و مبدع این علم، خلیل بن احمد فراهیدی است که کتابی در این باره نوشت و علم عروض به دستان توانای وی تکامل یافت که این امر حاکی از استعداد و نبوغ او دارد. اما به خاطر عواملی چند، که زیر آمده است، گروهی از پژوهشگران به اصالت علم عروض تردید کرده‌اند:

1- ظهور علم عروض به یکباره و تکامل یافته به دست خلیل بن احمد فراهیدی چرا که پیدایش آن، تابع سنت تکامل تدریجی نبوده است.

2- وجود متنی از ابن فارس که از آن چنین استفاده می‌شود که علم عروض قبل از خلیل وجود داشته است.

3- وجود متنی از بیرونی که دال بر این نکته است که خلیل در وضع علم عروض پیرو هندی‌ها بوده است.

به خاطر این عوامل و مانند آن، برخی از پژوهشگران جدید معتقدند که علم عروض عربی برگرفته از علم عروض سانسکریتی است، و گروهی دیگر بر این باورند که برگرفته از یونان است و گروه سومی هم معتقدند که عروض قبل از خلیل نیز وجود داشته است.

با بررسی آراء و نظریات مخالف و اثبات بطلان آنها؛ و ارائه دلایل تاریخی و علمی مبنی بر اصالت علم عروض؛ و بیان غرض اصلی خلیل بن احمد از ایجاد این علم؛ و در آخر بیان حقیقت کلمه (المتیر) در نزد باقلانی؛ اصالت علم عروض ثابت می‌شود.

کلید واژه‌ها: عروض، قافیه، بحر، تفعیله، وزن، المتیر

